أنماط المكان وتكوين العالم الروائي
(دراسة في أربع من روايات طه حامد الشبيب)

د. سرحان جفات سلمان
جامعة القادسية/ كلية التربية

خلاصة البحث:

يعد المكان مكوناً من مكونات السردية، ودرسه والاعتناء بدوره داخل النص السردي يمثل استجابة لطموح تفكيك وسائل التأثير في أي نص. وهذا التفكيك لا يتوخى عزل أي مكون من مكونات النص عن سواه من المكونات الاخرى، انما يروم التعمق في فهم هذا المكون في ذاته من جهة ، وفي علاقته بغيره من جهة اخرى.

من هنا، تأتي هذه المحاولة لتدرس المكان في ذاته وفي علاقته بالمكين، وفي وصفه مكوناً يتواشج مع مكونات اخرى في تكوين صورة النص النهائية.

مقدمة :

تصبو هذه الدراسة إلى وضع اليد على آلية اشتغال المكان في النص السردي ، ومن ثم استكناه عالم الخطاب الروائي، ودوره في تكوين نص روائي ذي فاعلية جمالية وثقافية مرموقة. واذ اصطفت هذه الدراسة بعضاً من منجز الروائي طه حامد الشبيب انموذجاً ممثلاً في روايات: انه الجراد، والابجديه الأولى، ومأتم، والظفيرة فقد جاءت في مبحثين: عني اولهما وهو الموسوم بـ(انماط المكان في روايات الشبيب: جدلية الالفة والضدية) بدراسة علاقة الذات بالمكان وهو ما دعي بالمؤثرات الداخلية للالفة والضدية، ودراسة علاقة البنية الاجتماعية وتكوين المكان بالذات التي تسكن ذلك المكان، وهو ما دعي بالمؤثرات الخارجية للالفة والضدية.

اما المبحث الثاني الموسوم بـ(المكان وتكوين عالم النص) فعني بصنفين من المكان هما: المكان المدني ، والمكان القروي، واضعاً اليد على نمطين من المكان كان الروائي يوظفهما، مع محاولة اضاءة ايثاره احد هذين العالمين على حساب الاخر، ودور كل منهما في اثراء مهمة المكان في النص السردي. ومن الواضح ان مهمة المبحث الثاني مكملة لمهمة المبحث الاول، مما جعل المبحث الاول يربو على المبحث الثاني في حجمه ودوره داخل البحث.

المبحث الأول: أنماط المكان في روايات الشبيب ((جدلية الألفة والضدية))

اولاً: المكان الاليف:

تكتنز ثنائية الألفة والضدية في تصور علاقة الذات بالمكان، ومؤثرات ذلك المكان التي نجد سبيلها في التأثير على الذات التي تسكنه، ثنائيتين تنظمان مواقف الذات من المؤثرات المكانية، وأفعالها التي تؤسس على وقف تلك المواقف. إحدى هاتين الثنائيتين يمكن وسمها بثنائية الانسجام والانفصام واخراهما يمكن أن يصطلح عليها ثنائية الثبات والتحول.

ولعل قضية الانسجام أو الانفصام التي تنظم علاقة الذات بالمكان تنطلق من وجهة نظر تلك الذات عن مكانها، إذ ليسمن شك في أن أية رؤية لا بد أن تؤسس على وفق مرجعية ما، وان توافر الذات على ائتلاف مع مرجعيتها سوف يفضي إلى وجود الرؤية الانسجامية، أما غياب المواءمة بين تلك الذات ومرجعيتها فسيقود – بداهة- إلى حضور الرؤية الانفصامية.بيد أن وقوف الذات عند حدود الرؤية لن يكون كافياً، إذ لا بد من حضور نمط فعلي ما يبني على هدىً من تلك الرؤية، بسبب من أن مهمة النص

السردي الأساسية هي رصد الحياة الإنسانية في بعديها: المألوف، وما يطرأ عليه من تغير يوجب فعلاً إنسانياً مواجهاً له. وهذا الفعل الإنساني يتجلى في الثنائية الاخرى، التي هي ثنائية الثبات والتحول.

إن قضية الثبات والتحول في التعامل مع المكان هي نتيجة تؤسس على ثنائية الانسجام والانفصام، ذلك أن كل انسجام بين الذات ومحيطها المكاني -بمكوناته الاجتماعية والجغرافية والفكرية- سوف يفضي إلى الثبات، أما غياب مثل هذا الانسجام فيعني انفصاماً من نوع ما بين الذات والبنية الاجتماعية أو المعرفية أو الجغرافية التي تكون مكانها، ومن ثم الإفضاء إلى التحول، الذي هو فعل تغييري يصبو إلى إعادة عافية الأواصر التي تربط الشخصية بمحيطها، قد يكون محيطها الأول، أو قد يكون محيطاً بديلاً منه.

ولئن كان الانسجام والثبات إفصاحاً عن حالة علاقة بين الذات والمكان، وكان الانفصام والتحول إفصاحاً عن حال اخرى مغايرة، لقد اصطلح على الحال الأولى الألفة، على حين اصطلح على الحالة الثانية الضدية، ومن ثم أمكن الحديث عن ضربين من المكان دعي أحدهما المكان الأليف أو الحميم بينما دعي اخرهما المكان المضاد.

ولعل التركيز على علاقة الذات بالمكان لدن فحص المكان من النص السردي في ضوء ثنائية الألفة والضدية يعني تحول تلك الذات إلى عيار يقاس على أساسه توصيف المكان ضمن واحد من تينك الوصفين، مع الاحتراز من أن هذه الألفة أو الضدية ليستا موقوفتين على شخصية دون اخرى، انما يمكن الذهاب أي أن لكل من الشخصيات الإيجابية أو السلبية مواصفاتها الخاصة في فهم الألفة أو الضدية، وان المكان في النص السردي للروائي طه حامد الشبيب وتمثل مقومات المكان –ولا سيما الجغرافية منها- مرتكزاً مهماً من مرتكزات ألفة ذلك المكان، وهذه الصفة الطبيعية للمكان تمثل اظهر صور الفته، مما يوحي بان تصور (سالم) بطل رواية (انه الجراد) يقوم على فهم الألفة بأنها تتحقق حيث تسود سنن الطبيعة، وتتراجع فاعلية الإنسان في تحديد هوية المكان، لذا جسد هذا المكان في الرواية التي سلفت الإشارة إليها بهذا الوصف: ((انظر هناك مكان يمكن ان تنزوي فيه بين أشجار المشمش، كانت الأشجار كثيفة وأغصانها دانية، وهي تتهيأ لموسم أثمار جديد بعد أن نفضت ما حملته قبل شهرين))[١].

إذ تتجلى ألفة المكان –هنا- فيما يمكن أن يدعى ((رومانسية رصد المكان))، وهي رومانسية لا تبدو في الاتحاد الذي سيحصل –لاحقاً- بين الشخصية ومكانها الطبيعي فحسب، إنما ستتخذ مظهر الهروب من المدينة التي تحاصر التوجهات الأخلاقية أو الروحية للبطل إلى القرية التي يراها متوافرة على جملة الفضائل التي تفتقدها المدينة.

كما يمتاز المكان الأليف في رواية انه الجراد بمحدودية مساحته الجغرافية، ولعل غياب الاتساع المكاني في حال الألفة يمثل رمزاً للتطابق بين الذات ومكانها، كان المكان لا يتعدى حدود الذات أو من تؤثره، لذا وصف المكان الأليف بأنه بقعة، حينما أحس بطل تلك الراوية بأنه ((يقترب من الإعلان الرسمي عن التزامه بالتخلي الجاد عن أمل الرجوع إلى بقعة المشمش))[٢].

والمكان الحميم غالباً ما يرتبط بالذات، وهو ارتباط يتجاوز حدود العلاقة المادية التي يتحول فيها المكان إلى إطار للذات، إلى الاتصاف بأوصاف لا يؤديها النص السردي بمواصفاتها، إنما يتركها، ابتغاء فسح المجال أمام فاعلية التلقي لاجتراح تصوراتها الخاصة عن علاقة الذات بالمكان الحميم، لذا وصف مكان البطل الحميم وصفاً ينفتح على احتمالية

التصاعد في تصور الألفة بين هذه الشخصية ومكانها، إذ ((دخل مدينته فتشبع برائحة لم يستطع أن يميزها بعينها، ولكنها كانت مجبولة عميقاً بين جزئيات عظامه))[٣].

وقد تدل ألفة المكان على اتساق الحالة النفسية للذات والحالة التكوينية للمكان، لذا يأتي وصف المكان متأثراً بالحالة النفسية لمن في ذلك المكان، كما يجعل الحالة النفسية تتأثر بوضوح بمحيطها المكاني، من هنا وصفت إسرة (صفوك البخيت) بأنهم ((كانوا يسهرون الليالي من اجل أن يتموا سقي اراضيهم، لا يفت في عضدهم برد، ولا يجرؤ النعاس على التسلل إلى أجفانهم، ذروة سعادتهم كانت

حينما تتطاير الخضرة من خدود نباتاتهم، ويغفو النسيم على جدائل مروج القمح. لم يعرفوا عيداً غير أيام الحصاد وجني محاصيل التمر والمشمش والحمضيات... لقد كانت الأرض المزروعة الدلالة الوحيدة على وجودهم))[٤]. تتحقق الألفة –على وفق هذا النص- حينما يصبح ثمة انسجام بين الذات ومكانها، وهذا ما يدفع إلى الذهاب إلى أن الألفة المكانية نابعة من تفاعل ما هو ذاتي داخلي، مع ما هو مكاني خارجي، وهو تفاعل سوف يفضي إلى الوصول إلى تكامل الذات ومكانها.

وقد تتخذ ألفة المكان طابعاً هروبياً، ذلك أن ضغط الواقع المضاد يفرض على الشخصية انماطاً من التعامل مع تلك الضغوطات وهي أنماط قد تبدأ بالمواجهة على نحو ما يلحظ في مواجهة سالم لصاحب المحفوظ الذي وصف في الراوية بأنه عنوان لقيم متردية طارئة[٥]. بيد أن مواجهات كهذه ستوصف في الرواية على إنها خارجة عن جدلية الصراع الاجتماعي، وما يفترض فيه من تكافؤ، مما يحمل الطرف الأضعف على الهرب بحثاً عن ألفة في مكان اخر، رداً على واقع لم يفض إلا إلى مزيد من متاعب الإنسان، ذلك أن الناس ((ولدوا طيوراً وظنوا أن السماء رحبة، حتى أسرتهم شباك الحيرة فتساقطت عقولهم أمام تعقيدات الحلول... آه لو تفتح السماء أمام أجنحة الجميع، لما كان هناك فرصة لتلك الشباك اللعينة))[٦].

إن المكان الحميم –هنا- (يوتوبيا) محضة، تحاول الذات أن تجعلها بديلاً من عالمها المضاد، بيد أن تلك الذات سرعان ما تكتشف هلهلة هذا المكان، مما يحملها على الجنوح إلى مكان اخر يدخل في الواقع، بيد أن الواقعية –هنا- لا تعني اكثر من التحقق المادي للمكان، أما من حيث المحمولات الدلالية لذلك المكان فسوف تبقى محمولات هروبية، على نحو ما يتجلى في مكان سالم في القرية، وهو مكان معزول قوامه التوحد بين الذات والطبيعة، ذلك أن بيت هذه الشخصية لن يتجاوز مجموعة من أشجار المشمش المتشابكة مع بعضها، مكونة مكاناً خاصاً، وعالما خاصاً ينسجم وتوجهات الذات في الانسلاخ من محيطها المكاني والاجتماعي.

ويبدو أن سالماً بطل رواية انه الجراد كان يستشعر صعوبة أن يبني الإنسان مكاناً طوباوياً، مما جعله يفكر بسهولة الانسلاخ من عالم لا ينسجم وما تصبو إليه الذات من ألفة، لذا تذكر انه ((كان عبود يقول بان المجانين طيور، ليس سهلاً أن يكون الإنسان طيراً... لكن... لكن... يمكن أن يكون الإنسان مجنوناً))[٧].

أما في رواية الأبجدية الأولى فان للمكان الأليف مرتكزات عديدة، لعل من أظهرها المرتكز التراثي، ممثلاً في الموروث القيمي أو التاريخي الذي توافر عليه ذلك المكان، وهو الموروث. سيتحول إلى مرجعية تنظم سلوك الذات التي تنتمي إلى ذلك الموروث، من هنا كان بطل هذه الرواية ((حريصاً أن يشاور جده في الأمر، فيجلس جنب قبره، عند رأسه تماماً، ويسرد بصوت خفيض، وكأنه يهمس بإذنه، تفاصيل ما ينوي أن يقوم به ويسأله بعدئذ النصيحة، فكان يسمعه ويحس كلماته طرية زاخرة بالحياة، وهي تطأ صيوان إذنه))[٨].

إذ يمكن وضع اليد على مجموعة من الملامح التي تكون صورة المكان التراثي الأليف، منها: السمة الطوباوية لهذا المكان، إذ ليس مجرد مكان يحتوي رفات ميت، إنما هو مكان يتوافر على نسق فكري غير زماني، بمعنى انه مؤهل للامتداد خارج زمنه إلى أزمنة اخرى، كما أن هذا المكان يمثل مكان الحل، أي المكان الذي تجد فيه الذات حلاً للمشكلات التي تعترض سبيلها، مما يجعل ألفة هذا المكان نابعة من قدرته على الانتقال بالذات من الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية التي تواجه على أساسها الإساءة المحتملة.

وثمة سمة اخرى يمكن أن تضاف إلى هذا المكان التراثي الأليف وهي انه مكان تاريخي، وصفة التاريخية تنطوي على اكثر من دلالة، منها الدلالة الزمنية التي تشير إلى انتمائها إلى زمن ماض، وهذه مسألة بديهية، إذ أن ماضوية ما هو تراثي أمر بديهي، بيد أن الأمر غير الطبيعي هو اتجاه الذات التي تقترب من ذلك المكان إلى الانخراط في السياق الزمني لذلك المكان، متجهة نحو سياق زمني يختلف في سياقه ومواضعاته عن سياق زمن هذا الذات ومواضعاته.

أما المرتكز الثاني الذي اثره الروائي طه حامد الشبيب في رسم صورة المكان الأليف في رواية الأبجدية الأولى فهو المكان الديني، الذي لا يبدو الاختلاف شاسعاً بينه وبين المكان التراثي، بيد أن فاعليته أوسع من فاعلية المكان التراثي، كما أن قدرته على التأثير في الشخصية أوفى من تلك التي توافر عليها المكان التراثي، وهذا أمر بديهي، لان المكان الديني في هذه الرواية يمثل ترميزاً للمطلق، أو هو الصورة المطلقة الكاملة للصفات التي يبحث عنها البشر، وقد تحولت إلى اله، أما المكان التراثي فيضم صورة من صور تفاني الإنسان في خدمة ذلك المطلق، أو هو أنموذج للذوبان في ذلك المطلق، لذا كان الإله في هذا المعبد هو الإله الذي توافر على إمكانات مطلقة ((فلم ينحر قربان إلا بين أقدامه، ولم ينسكب ماء مقدس إلا بين أصابعه، ولم يشك أحد إلا له، ولم يغفر ذنب إلا في حضرته، ولم تتضرع امرأة بصدر منتهك الحجاب إلا لقامته المديدة، كانت القرية تفتتح صباحاتها باسمه وتغلق أبواب الليل عليها باسمه))[٩].

إن مما يسجل لدن أنعام النظر في نمطي المكان: التراثي والديني، اللذين سلفت الإشارة إليهما هو هذا الغياب للوصف المكاني، وإيثار التعامل مع ما في هذا المكان من محفز لإيجاد قيم تراثية أو دينية، لذا احتفت الرواية بوصف الموجودات داخل المكان اكثر من احتفائها بوصف المكان نفسه، ولعل هذا من مقتضيات بناء هذين النمطين من المكان، ذلك انهما لا يتخذان قيمتهما إلا مما فيهما من إنسان أو اله، ومن ثم يلحظ أن هذه الرواية تصور الألفة انطلاقاً من محفزات تلك الألفة لا من مكانها، كأن وجود هذه المحفزات كفيل بان يحول أي مكان إلى مكان أليف.

كما أن الذهاب إلى أن الألفة في المكانين التراثي والديني تنبع من قدرتهما على الإحالة إلى ما وراءهما، فلئن كانا مكانين متوافرين على وجود واقعي محسوس، أن هذا لا يمنع قدرتهما على الانفتاح على عالم غير محسوس أو ما ورائي أو ميتافيزيقي، فالقبر يحمل الحفيد على ترحيل مشكلات الأحياء إلى عالم الأموات، الذي ينفصل تماماً عن عالم الأحياء، كما أن معبد الإله يعني انفتاح القوى الغيبية على مشكلات الفرد، مما يجعل المجهول في المكانين اشتراطاً من اشتراطات توافر تينك المكانين على الألفة.

أن رواية الأبجدية الأولى إذ تقدم القداسة بوصفها سبيلاً للفوز بالألفة المكانية لم تشأ أن تجعل الألفة مسألة خيالية لا يمكن أن تحقق إلا فيما هو ماضوي أو مقدس، إنما حاولت الإيماء إلى أن هذه الألفة يمكن أن تحقق في ما هو إنساني قائم الآن، لذا جاء المكان الإنساني الحاضر متخذاً صوراً عديدة يمكن الإلماح إلى اثنتين منها: إحداهما، المكان الأليف في مواصفاته اجتماعية ممثلاً في قرية الإله آلون، وسوف يفصل الحديث عنه في مبحث لاحق، واخراهما، المكان في مواصفاته الفردية ممثلاً في المنزل، ولعل ما يلحظ لدن فحص تعامل الشبيب مع هذين النمطين من المكان أن هذا الروائي قد احتفى بالوصف المكاني لهذين النمطين، وان بدت هذه الحفاوة مبكرة في تبيان صفات المكان الفردي، بينما أرجئت مواصفات المكان الجماعي إلى مراحل اخرى في الرواية.

ويبدو أن وصف هذين النمطين على خلاف ما بدا عليه المكانان السابقان يرجع إلى أن المكان الإنساني تنبع قيمته من جهتين، من جهته هو، ومن جهة ماضية، الأمر الذي يفضي إلى القول: بان ألفة المكان الإنساني ذات مصدرين: مصدر ذاتي قومه الصفات المكانية، ومصدر غير ذاتي يتمثل في مواصفات الشخصية التي تعيش في ذلك المكان، وهذا ما جعل وصف المكان الأليف يمتزج مع إضاءة البعد الاجتماعي لذلك المكان، لذا جاء وصف المكان الأليف على هذا النحو: ((اقتطعوا جزءاً من النهر بمحاذاة قريتهم، واستخلصوا من قاعه طيناً لم ير الشمس ومزجوه بجلد سمك السلاق فاستحال قوامه دهنياً لا ينفذ فيه ماء، بعد ذلك تركوه على هيئة قطع كبيرة ليجف تحت الشمس... صفوا القطع على بعضها بين ركائز جذوع النخيل وتحت حزم السنسميل، وكانوا يطلون القطع قبل رصفها بمزيج القير والنورة ومسحوق الخفافيش العملاقة. وبعد أن انهوا بناء الجدران استخدموا القطع الباقية لتحديد غرفة منام العروسين ولإنشاء سريرهما الذي غطوه بعدئذ بطبقتين من جلود المعز البيض، بينما سلخ ثعلبان وعبئ جلداهما بريش القبّر ليكونا وسادتي ليلة العرس))[١٠]

وقد حاولت رواية مأتم أن تقدم أنماطاً من الأماكن يمكن وضع اليد على ابرز ثلاثة منها، هي: مكان الآن (المأتم)، والمكان المسترجع ممثلاً في قصر المالك، والمكان العام (البلدة)، وقد ظل النمط الأول يمثل مهيمنة مكانية ظلت تشد النمطين الاخرين، برغم أن المساحة التي ظفر بها النمطان الثاني والثالث أوسع من تلك التي توافر عليها النمط الأول.

ويمكن الذهاب إلى أن من اظهر المواصفات التي يمكن أن توضع اليد عليها لدى دراسة المكان الأليف هي هذا الانحسار الواضح لوجود المكان الأليف، إذ طالما حفلت رواية مأتم بالمكان المضاد، بينما تراجع فيها الاهتمام بالمكان الأليف ويبدو أن سبب هذا التراجع يكمن في علتين: إحداهما أن عنوان الرواية موح بان مركزية الاحداث، ومن ثم مركزية المكان سوف تبقى مشدودة إلى حدث واحد، وهو المأتم، ومن ثم ستبقى مشدودة إلى مكان ذلك الحدث. واخراهما، طبيعة بطل هذه الرواية الذي يمارس فعل استرجاع الماضي، وهو شخصية لم تكن مهيئة فيما أخال لاستحضار امتدادات الحدث الذي وقع في المكان الأليف، مرة لان هذه الشخصية كانت مبنية حول التعايش والمكان المضاد، ومرة اخرى لان المناسبة التي حملها العنوان بقيت تمثل مهينة توجه مساحة العملية الاسترجاعية، ونوعها.

اما الصفة الثانية للمكان الأليف في رواية مأتم فتتجسد في انه مكان ماضوي الطابع، تسترجعه الذات استرجاعاً يمتاز بضآلة مساحته الزمانية والمكانية، فعلى صعيد التكوين الزمني للمكان المسترجع في هذه الراوية يلحظ انه عبارة عن ومضات زمنية يسيرة، لا تحتمل أن ترسم مشهداً سردياً يمثل حدثاً سردياً متكاملاً، أما من الناحية المكانية التي تكون قوام المكان الأليف المسترجع فتمتاز بميزتين: إحداهما، غياب الوصف غياباً شبه مطلق عند استحضار المكان الأليف، لكن هذا المكان غالباً ما يكون ممثلاً في البيت. واخراهما، ان المكان الأليف إذ يبدو غير جلي الملامح فإنما يحاكي الذهنية التي أنتجته، وهي ذهنية الراوي، التي كانت ذهنية غير مؤهلة للامساك بأطراف الأشياء، فضلاً عن الإلمام بتفاصيلها، فهذا الراوي كما يروي هو: ((صحيح إنني لم أك اعي أنها زوجتي، لكنني كنت استشعر فيها، أيام الرحلة الأولى، امومة لا يأتيها ريب. كانت تهدل مثل حمامة حين يمرض، فلا يهدأ هديلها حتى تملأ كركراته الدار، كنتُ أرى ذلك فيها واسمع، على إنني ما كانت لتطرف لي عين، إذ لم يخطر ببالي إنها زوجتي وان ذاك ولدي وهي أمه))[١١].

إذ تتحقق الألفة المكانية –هنا- في أن هذا المكان بيت، لكنه غير واضح المعالم، فالروائي لم يعن بالبعد الهندسي للمكان، بقدر ما عني بالبعد الاجتماعي لذلك المكان، وهو مكان قوامه: الأب والام، والطفل بيد انه برغم إشارته إلى الجانب الاجتماعي للمكان فقد ظلت العلاقات التي تكون ذلك الجانب علاقات غائمة، لا يستطيع وعي الراوي الإمساك بها.

ثانياً: المكان المضاد :

والمكان المضاد هو الوجه الاخر لعلاقة الشخصية بالمكان، فالضدية **تكون** صفة للمكان بناءاً على أسس عديدة، فقد تكون نتيجة عوامل تتعلق بالذات التي تتحرك في ذلك المكان، وموقف تلك الذات من محيطها، وقد تكون نتيجته لما في ذلك المكان من عوامل تضغط على الذات، محولة احتمالات الألفة في المكان إلى احتمالات ضدية.

فالضدية –إذن- في الحالة الأولى نابعة من الداخل، ثم تتحرك من هذا الداخل مشكلة الخارج على وفق احتمالات ذلك الداخل، ولعل مما يندرج ضمن **ضدية** المكان، بوصفها إسقاطاً لما في الداخل على الخارج، أن يتحول المكان إلى مكان مضاد، بسبب اختلاف وعي الشخصية عن وعي مجتمعها، كان تكون الذات متوافرة على وعي تأملي، على خلاف وعي مجتمعها الأفقي الذي يلامس ظواهر الوجود، وهذا الاختلاف سوف يفضي إلى اغتراب الذات عن محيطها، إذا ما فهم الاغتراب ((بوصفه خاصية ذاتية للوعي التأملي))[١٢]، ثم يفضي هذا الاغتراب الداخلي إلى غياب الانسجام مع المكان، ومن ثم يتحول ذلك المكان إلى مكان مضاد.

أما الضدية في الحالة الثانية فمتأتية من الخارج، أي أنها من اسقاطات الخارج على الداخل، مما يجعلها مختلفة تماماً عن الحالة الأولى، فالحالة الأولى ضدية في الرؤية، أما الحالة الثانية فضدية في

الواقع القائم، من ثم فهي التي تنتج الضدية، وليست الضدية هي من ينتجها. وهذا النمط الثاني اوسع في شيوعه من النمط الأول، ولا سيما في الروايات التي تعنى بتحليل دواخل الشخصيات، بل ترصد حيوات الأشخاص بوصفها مكوناً من مكونات العالم السردي الذي تقدمه للقارئ.

وتؤسس الضدية في المكان حينما يوجد ثمة اختلال بين الأنا والاخر، يعود إلى طبيعة البنية الاجتماعية التي تتحرك داخل ذلك المكان، كأن هذا المرتكز ينقل فكرة الضدية من المكان أو الذات إلى نطاق أوسع، ممثلاً في البناء الاجتماعي الذي يحكم ذلك المكان.

إذ تقدم رواية انه الجراد تصوراً عن البنية الاجتماعية على إنها مؤثر يصنع ضدية المكان، وهذا التصور يستند إلى دعامات ثلاث: الأولى: الطارئ الاجتماعي. والثانية: الغنى: والثالثة: استعداد النسيج الاجتماعي للتأثر بالطارئ وسلطة الغنى.

تتمثل فكرة الطارئ الاجتماعي في هذه الرواية في دخول شريحة اجتماعية ما في النسيج الاجتماعي لمكان ما، وهذا الدخول سوف يكون مقروناً بدخول قيم اجتماعية ومعايير أخلاقية طارئة، قد تدخل في صراع مع القيم الأصلية، مما يفضي إلى خلخلة المعايير الراسخة أو انحسارها. هكذا وجدنا شخصيتين من شخصيات (انه الجراد) تتحسسان خطراً اجتماعياً قادماً، لذا فانهما ((في طريق العودة تجاذبا الشكوى من ازدياد الغرباء في المدينة))[١٣].

ان صورة الغريب في هذه الرواية ستبقى قوة فاعلة في قيادة حركة التغيير اجتماعي المتمردة على كل القيم الثابتة، ناسجة عالماً اخر مختلفاً عن العالم الثابت المألوف، ولعل هذا ما يلمح في تقويم سالم لشخصية صاحب المحفوظ، الذي كان مثالاً للدخيل المفسد، حيث وصفه بأنه ((فاسق غريب عن مدينتنا))[١٤]. مما يعني أن أي انقطاع اجتماعي بين ذات ومجتمعها سوف يفضي إلى الإزراء بالنسيج الاجتماعي، وان هذا الانقطاع –ممثلاً بالغربة- هو الكفيل بتحويل ألفة المكان إلى ضدية، وضديته إلى ألفة، ولعل هذا ما يفسر إصرار سالم على إيثار البقاء في ردهة الأمراض العقلية المستعصية على التحول إلى مكان احتمالات الألفة فيه أوفى، لكن احتمالات التواصل مع الأخر اقل، مما حدا به إلى الذهاب إلى إيثار الألفة الاجتماعية على الضدية المكانية متعللاً بقوله: ((الناس يعرفونني هنا وخير لي أن أبقى فيها دعني في ردهتي))[١٥].

ومما يتواشج ودعامة الطارئ الاجتماعي التي سلفت الإشارة إليها دعامة اخرى تضفي على المكان دلالات مزدوجة، فالغنى يقدم في هذه الرواية على انه مظنة ألفه مكانية للطارئ الاجتماعي، وضدية محضة لكائنة واسعة من مجتمع الرواية، ولعل هذه الازدواجية هي التي تصور المكان المضاد على انه ((عالم نسج من عقد الحيف، يموت فيه الصغار قرباناً لكروش الكبار، وتذبح فيه فرحة العذارى في مهرجانات بهجة الأثرياء))[١٦]، بل أن هؤلاء الأغنياء سوف يستحيلون إلى عنوان لضدية المكان إذ كان سالم بطل رواية انه الجراد يقدم هذه الرؤية من خلال صرخته التي يقول فيها: ((أينما اذهب هم أنفسهم السبب... تعساً))[١٧].

إن فعالية الدعامتين اللتين سلف الإيماء لهما لن تكون ذات جدوى إلا وهي تقترن باستعداد يظهره البناء الاجتماعي لاستقبال الطارئ، والوقوع في دائرة الغنى والتأثر به، كأن هذه الدعامة تقوم على فكرة أن المتغير الاجتماعي لن يتحقق إلا في إطار حركة التأثر والتأثير. من هنا كانت فكرة التآكل الاجتماعي محفزاً للتأثير في بنية اجتماعية هشة، جعلت البطل واقعاً في تضاد مع الأخر، ومن ثم ضدية مكانية ((فلقد كان كل شيء يتآكل من حوله إلا عقله))[١٨].

وحينما درست طائفة من النقاد تحول الذات من مكان إلى اخر داخل النص السردي، ذهبت إلى أن تحولاً كهذا مرهون بحصول الإساءة في المكان الأصل، وهي إساءة إذ تنقلب بالمكان من حالة الألفة إلى حالة الضدية فإنها تحمل الذات التي تسكن ذلك المكان على مغادرته إلى مكان اخر. وهذا يعني ان فكرة الانتقال –هنا- تتم بمحض إرادة الذات، وان كانت موجهة بالضغط الظرفي المحيط بها.

أما فكرة الانتقال في رواية انه الجراد فلا تقوم على حصول الإساءة في المكان الاصل، فحسب. إنما تتجاوز ذلك إلى النقل قسري من مكان الإساءة إلى مكان اخر. من هنا جاءت فكرة الترحيل في هذه الرواية حينما نقل سالم من مدينته إلى مصحة المجانين حينما ((استقدم فريق من مصحة الأمراض العقلية من العاصمة في سيارة قاتمة لاقتياد سالم، كانوا سبعة رجال اشداء، اختيروا خصيصاً له بعد أمر عاجل حمله خط هاتف منزعج من مدينته، البسوه ثوب المجانين الخاص، بعد عنت صعد السيارة وهو يزأر لست بمجنون... لست بمجنون... اسجنوني.. اشنقوني، ولكني لست بمجنون))[١٩].

إذ يكشف هذا المقتبس من رواية الشبيب فكرة الترحيل القسري من مكان الإساءة من خلال ثلاثة محاور: أحدها، غياب قصدية الرحلة أو إرادة الانتقال التي ينبغي صدورها عن البطل ليحل محلها الاقتسار كما يتجلى في حضور الرجال السبعة، وثانيها: أن الأساس في الرحلة أن تكون انتقالاً من مكان مضاد إلى مكان أليف، بيد أن هذا المقتبس يقدم لنا صورة معكوسة قوامها الانتقال من مكان اقل ضدية إلى مكان يتمحض للضدية، كما في تصوير السيارة التي نقل فيها البطل -وهي مكان في هذا المقتبس- على إنها سيارة قاتمة، وثالثها: مغالبة هذا الاقتلاع القسري للذات من مكانها إلى مكان اخر على نحو ما يتجلى في طلب الموت عوضاً عن الدخول في المكان المضاد.

ويمتاز المكان المضاد بمحدوديته وانحسار مساحته، إذ يوصف بأنه (أحد أعشاش البستان))[٢٠] والمحدودية –هنا- راجعة إلى سرية المكان، فهو إذ ينقطع عن الفضاء القيمي الذي تقره جماعة ما، يتخذ مساحة صغيرة، ربما تكتنز رمزاً يساوق فكرة الاستصغار الاجتماعي لهذه الأمكنة.

إن صورة البستان، وقد تحول إلى مثال للمكان المضاد، تكتنز ثنائية ضدية قوامها هذه الأشجار الوارفة أو المساحات التي تغطيها أوفى احتمالات الحياة من الحياة والشجر تبدو من الداخل حافلة باحتمالات الخواء الداخلي أو الموت القيمي، ذلك أن مرتادي هذه الأماكن ممن يصدق عليهم الافتقار القيمي.

فالمكان في حال كهذه لا ينطبق ومضموناته الفكرية أو الأخلاقية، ولعل الصفة الضدية مما يلحظ جليا في تصور طه حامد الشبيب للمكان، فالمصحة في رواية انه الجراد لا تمثل داراً للمجانين على نحو ما هو ظاهر، إنما تجتمع فيها تصورات راقية عن سيرورة الحياة، وهي تصورات لا تنتمي إلى المكان بقدر ما تنتمي إلى الذات التي تسكن ذلك المكان.

ولعل في الصفة الضدية التي يظهر فيها المكان الروائي، حيث يختلف المحمول الدلالي للمكان عن المضمون الفكري للشخصية التي في المكان، ما يوحي بإرادة الروائي التوصل إلى أن مسألة الوعي الذي تتوافر عليه شخصية ما مسألة تؤكد انتماء هذا الوعي إلى الشخصية ومحمولها المعرفي اكثر من الانتماء إلى المحيط الثقافي أو المؤثر البيئي لتلك الشخصية.

إن الإشارة إلى انتماء الوعي بالمكان إلى الذات أولاً هو الذي جعل رؤية هذه الذات مقوماً مهماً في تحديد ألفة المكان أو ضديته، ذلك أن وجهة النظر التي يرصد المكان على أساسها هي التي ستكون هوية ذلك المكان وعلاقته بالذات التي تسكنه. من هنا وجدت الضدية في بعض المواطن من روايات الشبيب بناءاً على تصورات الذات، لذا تحولت الطبيعة -الآمنة في نظر سالم- طبيعة تهدد الذات، ذلك انه ((كان يرى في كل شجرة احتجبت وراء نخلة شرطياً يتوثب للامساك به أو قتله مباشرة))[٢١]

ويمكن الذهاب إلى أن المنطلقات التي ظلت تسم المكان بالضدية أو الألفة في رواية انه الجراد هي نفسها التي وسمت المكان بهاتين الصفتين في رواية الأبجدية الأولى، ذلك أن الطارئ الاجتماعي لم ين يكون المحرك الأبرز في توسعة احتمالات الضدية في المكان، وفي هذه الرواية يتحقق هذا الطارئ حين الأخبار ((بان هنالك من جاء إلى تلك القرية مبشراً باله اخر غير إلههم الذي يستظلون بظله، زاعماً بأنهم يرتكبون خطأ فادحاً بعدم تعظيمهم للإله الجديد[٢٢].

بيد أن النتائج التي تبنى على تلك المنطلقات قد اختلفت بين الروايتين فإذ قدمت رواية انه الجراد الضدية بوصفها سبباً يفضي إلى الهجرة من المك[١] انه الجراد: ٥٠

ان، بحثاً عن ألفة في مكان اخر، فان رواية الأبجدية الأولى قدمت الضدية بوصفها سبباً في الرحلة إلى المكان، أي أن الذات –هنا- سوف تقوم بالرحلة من المكان الأليف إلى المكان المضاد، مما يجعل رحلتها ذات أهداف وتوجهات تختلف عن تلك التي بدت عليها نظرتها في رواية انه الجراد، ذلك أن رواية الأبجدية الأولى لم تقدم التحول المكاني بوصفه سبيلاً للخلاص الذاتي، إنما قدمت هذا التحول بوصفه سبيلاً للخلاص الجماعي، أو التوقي من الضدية المحتملة، ولعل في رحلة شلمال –بطل رواية الأبجدية الأولى ما يؤكد هذه الفكرة، فقد انفصل عن مكانه الأليف مؤثراً عليه المكان المضاد، إيثاراً للمصلحة الجماعية على الخلاص الفردي[٢٣]، وفكرة الرحلة إلى المكان المضاد سوف تكون لازمة تكرر في أكثر من مناسبة في هذه الرواية[٢٤].

ومن السمات الواضحة للمكان في راوية الأبجدية الأولى أن ثمة تداخلاً بين الضدية والألفة في مكان واحد، فلقد بدا معبد الإله ألون بوصفه مكاناً مقدساً، بيد أن ما يحصل فيه من خرق لهذه الألفة لدن وصف الكاهن لشخصية من الشخصيات بأنه مسخ أن عليه أن يطرد مع الكلاب خارج المعبد[٢٥]، سوف ينمي احتمالات الضدية في النظر إلى هذا المكان، وهي احتمالات سوف تنمو لاحقاً إلى حد تتحول فيه إلى فعل مضاد لهذا المعبد وكاهنه.

وإذا كان هذا التداخل بين الضدية والألفة في الفقرة السابقة تداخلاً في الرؤية، فان هذه الرواية تقدم لنا نمطاً من التداخل مختلفاً عن سابقه، وهو وجود المكان المضاد داخل المكان الأليف، على نحو ما يتجلى في القبو الذي حبس فيه سنار اذ حفر داخل كوخ كانت تمارس فيه طقوس قداسية، يتحول فيها الناس إلى اتباع للإله الأعظم[٢٦]، فالتداخل بين المكانين تداخل مادي، يفضي إلى إيجاد نوع من الصراع بين نمطي المكان، مما ينتج عنه انتصار أحدهما، ومن ثم حلول رؤية المنتصر محل الرؤية الأخرى، وخلوص المكان لوجه واحد بعد تغييب الوجه الأخر المختلف.

ويمتاز المكان المضاد في رواية الأبجدية الأولى بضيق جغرافيته، فقد قدم أدل أمثلته على الضدية بوصفه قبواً ذا مواصفات عديدة، فهو ذو فضاء مظلم يخيم عليه الصمت المتوالد والوحدة[٢٧].

والى جانب هذا المكان يرد في هذه الرواية نمط اخر من المكان المضاد، يختلف عن المكان الذي سلفت الإشارة إليه، هو العرين، أو المكان الذي اتخذه جرن كاهن الإله الأعظم، وقد كان هذا المكان: ((متسعاً أضيء عند أركانه بثمانية مشاعل، حيث وضع مشعلان في كل ركن، درجت أرضه، فالداخل إليه يرتقي ثلاثة مستويات. أما أسمى الثلاثة فتتوسطه دكة فخمة، لجدرانها بريق، حيث ينكسر الضوء فوق سطوح الأحجار الملساء التي وضعت فيها، وكان جلياً للجميع إنها مقدسة ولن تليق إلا بمقعد الكاهن))[٢٨]

أن استفهاماً ما قد يثار –هنا- عن السبب الذي جعل الروائي طه حامد الشبيب يعزف عن وصف المعبد بوصفه مكاناً أليفاً بينما ينصرف هنا إلى وصف المكان المضاد انصرافاً يضيء ملامح ذلك المكان، والدلالات التي يمكن أن تستنبط من ذلك الوصف، ولعل إجابة عن استفهام كهذا يمكن أن تذهب إلى أن الاقتضاب في وصف المكان المقدس ألاليف في رواية الأبجدية الأولى تخدم فكرة القداسة الحقيقية التي أراد الروائي إبرازها من خلال إيثار المسكوت عنه، وفسح المجال أمام مخيلة المتلقي لاجتراح ما تشاء من دلالات تضفيها على ذلك المكان، أما وصف المكان المضاد في الرواية نفسها – وهو مكان مقدس أيضاً- فيرجع إلى أن هذا المكان متلفع بقداسة مدعاة، ومن ثم يأتي الوصف ليضيء هذا الادعاء، وليضع المتلقي أمام مؤشرات تعينه على فهم هذه القداسة المزعومة فهماً أدنى إلى حقيقتها، ولا سيما وان أول هذه المؤشرات يتجلى في هذا التدريج الذي هو إيحاء بطبقية سيكون المريدون في أدنى درجاتها، بينما سيرتقي كلب الكاهن إلى درجة عليا، ذلك أن ((جرن بعدان اعتلى تلك الدكة دعا غلامه وكلبه هانك للجلوس بين قدميه على المستوى ذاته من ارض الايوان، وافتى أن انتشر باقي الاتباع على المستوى الثالث، تاركين المستوى الثاني الذي يفصلهم عن مستوى دكة الكاهن فارغاً إلى حين))[٢٩].

ولقد عرف عن الروائي طه حامد الشبيب دأبه على تنويع وسائل السرد التي يصطنعها في منجزه السردي، وهذا ما يفضي إلى القول بان تنويع تلك الوسائل سوف يفضي إلى ثراء كل وسيلة منها على حدة، ومن ثم ثراء المنجز العام، من جهة اخرى. ولعل رواية (مأتم) واحدة من روايات الشبيب التي تمتلك فرادة تميزها من سواها من رواياته، وهي فرادة مرجعها إلى كثافة دلالات هذه الرواية مع توسع علاماتها التي تنتج تلك الدلالات، ومن ثم سيصبح كل عنصر من عناصر هذه الرواية متأبياً على أحادية الدلالة، أو سهولة الانقياد لقراءة تسقطه في المباشرة، أو ملامسة الأشياء كما هي متحققة خارج النص.

أن أولى الملامح التي يمكن للفحص النقدي أن يجدها في توظيف المكان في رواية (مأتم) ستحقق في أن المكان المضاد في رواية مأتم هو مكان مسترجع، بيد أن مساحة الاسترجاع -وهو في هذه الرواية استرجاع غير بعيد من زمن الذات المسترجعة ومكانها- تختلف اختلافاً تاماً عن الاسترجاع الذي رصد في رواية الأبجدية الأولى، إذ المساحة الاسترجاعية في مأتم مساحة ضيقة في زمنها ومكانها، أما المساحة الاسترجاعية في رواية الأبجدية الأولى فهي واضحة المكان- إلى حد ما- لكنها غير زمنية.

كما أن المكان المضاد في رواية مأتم يسترجع بوصفه مكاناً للذات المسترجعة، بينما لا يبدو أن المكان المسترجع في رواية الأبجدية الأولى كذلك إذ أن المكان هناك قد يكون مكان الاخر، ويسترجع بطريق راو له القدرة على استحضار تاريخ الشخصيات، ومن ثم إضاءة ماضيها الزماني والمكاني والسلوكي.

ولعل مما سوغ هذه الموازنة المقتضبة بين المكان المضاد في تينك الروايتين اشتراكهما في الطابع الماضوي الذي يتخذانه أساساً في خطابهما، وهو طابع يلوح لهذه القراءة النقدية النظر إليه على انه يساوق المحمول الفكري لهذين الروايتين، إذ أن الإيحاء السياسي ونقد الواقع القائم يلوح في الروايتين، ومن ثم يصبح إضفاء الطابع الماضوي عليهما جزءاً من وسائل السارد في اجتناب المباشرة في ملامسة الواقع، وإيثار الترميز بديلاً في إضاءة بعض مكامن ذلك الواقع.

أما السمة الثانية للمكان المضاد في رواية مأتم فتتجسد في إشارة الروائي إلى نمطين من أنماط الضدية تعتوران المكان باستمرار، احدهما ما يمكن أن يصطلح عليه الضدية الخارجية، وهي أن يتحول المكان إلى مكان مضاد بفعل مؤثر خارجي، على ما يلاحظ في صورة احتراق المدينة على يد مجموعة من المزارعين، إذ ((تقول سريرة ان المزارعين بعد أن احرقوا الآبار تفرقوا زرافات في البلدة وجعلوا ينتزعون الدلاء من اكف الناس التي كانت تحملها إلى مزارع الرز، ويسفحون ما فيها على الطرقات ويحرقونه حيث ينسفح، الواقع نحن أنفسنا، المباركون والطبالون، كنا نرى الحرائق تدب نحو القصر، كما تدب كائنات مغيضة، إذ لم ينج في ذلك اليوم من حرائق المزارعين حتى الشوارع الضيقة غير المبلطة التي تتوسط الأزقة. ورغم أننا قد احكمنا غلق نوافذ الجناح إلا أن الدخان كان يتسلل إلينا))[٣٠].

وقد مثلت الضدية الداخلية النمط الاخر من أنماط المكان المضاد التي أفصحت عنها رواية مأتم، وهي ضدية تنبع من السلطوية، بوصفها سلوكاً اجتماعياً يهدف إلى تغييب الاخر، أو إخضاعه لمشيئة الذات، ومعنى أن هذا النمط يمثل ضدية داخلية أن ينتمي الشخص الذي يثير هذه الضدية إلى البنية الاجتماعية نفسها التي سيقع عليها الفعل المضاد. ولعل من اظهر الأمثلة على الضدية الداخلية شخصية مالك البلدة التي ستحول هذه البلدة إلى مكان مضاد بسبب سعيها في رحلاتها لإعلاء شأن البلدة وهي رحلات كانت تستنزف البنية الاجتماعية لهذه البلدة، مما جعلها تتحول إلى بلدة ضدية، ولا سيما في قصر المالك، الذي غدا مثالاً واضحاً للاستلاب الذي يلحق بالاخر، نتيجة استبداد الذات.[٣١]

وكأي من روايات طه حامد الشبيب جاءت البنية المكانية ذات الطابع الضدي في رواية مأتم حصيلة لفكرة السلطوية، وهي لازمة لا تكاد تخلو منها أية واحدة من روايات الشبيب، ولعل هذا مما يعزز ما سلف الإلماح إليه من أن روايات الشبيب كلها تكتنز خطاباً سياسياً مرمزاً، ذلك أن استبصاراً أوليا سيكشف عن أن المدينة الرابعة في انه الجراد ومكان كاهن الإله الأعظم في الأبجدية الأولى، والبلدة وقصر المالك في مأتم وأماكن اخرى سوف يشملها الاستقراء عند التعرض للروايات الاخرى،

أقول: أن استبصاراً أولياً سوف يفضي إلى أن المكان المضاد لم يتحول إلى الصفة الضدية إلا حيث يكون التسلط حاضراً، ولعل المتتبع لحركة السرد في الروايات الثلاث ونمو الشخصيات وأثره في تكوين ملامح المكان، سيصل إلى أن شخصيات مثل يعقوب ونجاة في انه الجراد، وجرن في الأبجدية الأولى، والمالك في مأتم ليست سوى تنويع على أنموذج واحد، ومن ثم فلا غرابة في أن يكون المكان المضاد تنويعاً على مكان واحد أيضاً.

مما ينبغي أن يشار إليه –هنا- أن أية مقاربة نقدية لروايات الشبيب سوف تصل إلى نتيجة فحواها أن هذا الروائي يعنى بمصدر الضدية في المكان اكثر مما يعنى بعلامات هذه الضدية، بمعنى انه لا يعنى بالمكان بما هو معطى جغرافي فقد أهلية الألفة التي كان يوفرها للإنسان متحولاً إلى مكان المضاد، إنما يعنى بفعل الإنسان الذي افقد المكان مؤهلات الألفة وجعله مكاناً مضاداً. ولعل في راوية مأتم ما يقدم مصداقاً لهذه المقولة النقدية، إذ أن شخصية المالك ومساعده امرد وطائفة من الشخصيات المحيطة بهما، استطاعوا أن يحولوا البلدة إلى بلدة ضدية، من جهة، كما أنها كانت استرجاعات تبني عالماً عبثياً (فنطازياً) يصبح فيه الجنون لازمة التغيير الحقيقي[٣٢]، بينما يغدو العقل أداة لتعطيل ألفة المكان، وهذه الرؤية تعود بالذاكرة إلى ما قدمه الروائي في روايته الأولى انه الجراد حيث حول شخصية سالم ومجموعة من نزلاء مصحة الأمراض العقلية إنموذجات واضحة على فهم العلم، بينما حول شطراً من عقلاء الروايتين إلى أمثلة لقتل ألفة المكان.

أن ضدية المكان في رواية مأتم قد تكون حالة زمنية، بمعنى أن البعد الزمني سوف ينظم موقف الذات من المكان، فإذا كان الزمن مضاداً فان من البديهي أن يكون المكان الذي تتجسد فيه آثار ذلك الزمن مكاناً مضاداً من هنا كان الشبيب يعنى بهذا التراسل بين تينك المكونين السرديين، فيتحول وصف الزمن إلى دال ينفتح على وصف المكان، على نحو ما جاء من وصف علاقة البطل بالزمن: ((وهذا هو مساؤه يلفني فلا يلفني إلا بما يؤكد لي واقعاً.. واقعاً؟.. نعم واقعاً، طالما كنت أتجنب النظر اليه، ذلكم هو أنني جرذ لا اكثر. أما ماذا كان يعني لي ذلك الشعور، فلا احسب أنني كنت قد ترددت يوماً بقبوله كواحد من مشاعر تمر بي مثل طيف عابر، لكن ذلك لا يتعدى إحساسي بفشلي في أن أكون حملاً مثلاً، إذ أن الحمل بلا شك اكثر هيبة من الجرذ. بيد أنني في الوقت ذاته أمحص الأمر من زاوية اخرى فأرى الجرذ اشد عزماً واكثر تصميماً من الحمل على التشبث بالبقاء، فهو يبقى يدور في قفصه بحثاً عن منفذ للهروب من قدره، وحين يعجز يلطي إلى مشبك القفص، ولا يرتجف قبل ذلك أبداً، اجل، أنا اعشق البقاء كما يعشقه زملائي جميعهم، ولزملائي في الجرذ لا في الحمل اسوة، إنما يا لتعاستي وتعاستهم فإننا نرتجف قبل أن نلطي إلى المشبك بوقت طويل))[٣٣].

إذ يعتمد الروائي طه حامد الشبيب على البعد الزمني في إضاءة قضيتين إحداهما، علاقة الذات بالزمن، وهي علاقة يحكمها إسقاط ما هو ذاتي على المقوم الزمني لوجود تلك الشخصية، ليتحول ازدراء الذات إلى نتيجة من نتائج الفعل الزمني في الذات ومحيطها، واخراهما علاقة الذات بالمكان، وهي علاقة نتجت عن التصور الزمني، متخذة أسلوب المقارنة بين نمطين من المكان : مكان الإنسان، ومكان الجرذ، وصولاً إلى أفضلية النمط الثاني على الأول. ولعل هذه المقارنة تمثل مصداقاً لما سلفت الإشارة إليه من أن إضاءة البعد الزمني، هنا، يهدف إلى إضاءة البعد المكاني. وهي سمة تكاد تكون واضحة في روايات الشبيب، فلطالما ساهمت المواصفات الزمانية في إضفاء دلالات كثيرة على البنية المكانية، كما ورد في رواية انه الجراد حينما وصفت إحدى بائعات الهوى يعقوب بأنه ((ابن ليل أصيل))[٣٤]، محولة الزمن إلى مرتكز يدل على طبيعة المكان ووظيفته، ومن ثم تصبح دالاً على هوية ذلك المكان الضدية.

وقد اتخذت الضدية، بوصفها صفة مكانية، مظاهر مختلفة في رواية الضفيرة، فقد انطلقت ابتداء من التسمية، إذ أن تسمية مكان الشخصية السلبية باسم العين الجاحظة يكتنز إيحاءات عديدة لعل اظهرها ما يوحي به جحوظ العين من وجود شخصية تشرئب للظفر بكل شيء، ويبدو أن فكرة غياب القناعة لم تكن حاضرة لدى تسمية هذا المكان فحسب، إنما كانت هندسة ذلك المكان شاهداً على ما إشير إليه سالفاً من إيحاءات تسمية هذا المبنى، فقد كان على ما وصفه راوٍ ((الله يكفينا شر ذلك المبنى، حسنا انه بهيئة

عين هائلة جاحظة محملقة في السماء. فله جفنان يتقاسمان الشمال والجنوب، يحتضنان كرة ناتئة، وفي قمة الكرة يستحوذ كرسي حسب الدين على البؤبؤ كاملاً. فكتبه هناك تماماً))[٣٥].

أما المظهر الثاني من مظاهر الضدية في المكان الذي تقدمه رواية الضفيرة فيتمثل في ضيق الأبعاد المكونة للمكان، ذلك أن اصطلاح المدينة على المكان في هذه الرواية ليس سوى إشارة إلى العنوان الرئيس لهذا المكان، أما العنوانات الجانبية التي تندرج تحت ذلك العنوان الكبير فلا توحي إلا بالضيق، ومن ثم الضدية، ولعل من أوضح الإشارات الدالة على ضدية ذلك المكان ما قدمه الشبيب تحت تسمية تدبيرات لجنة المتعهدين باستمرار الحياة على كوكب الأرض: ((فمن بين تلك التدابير ما عرف يومئذ بتسقيف الشوارع. انت تراها الآن مسقوفة إنما، لا تعلم كيف حدث ذلك حسناً لقد أحال ذلك التدبير المدن إلى صناديق كبيرة، لا ينفذ إليها ضوء الشمس المبدد إلا بمقدار محسوب يكفي لسد رمق النبات في محمياته الزجاجية... وسيلة وحيدة ربما كانت تلوح لهم غير بسط السقوف الخرسانية على الطرقات، تلك هي اعتماد اللدينة الشفيفة ذاتها التي بتنا نستخدمها كلدينة رؤية في بذلات الوقاية))[٣٦].

أن ضدية المكان تنبع في هذا المقتبس، كما الحال في سائر أجزاء الرواية من ضيق المساحة المكانية التي تتحرك الذات فيها، وهي مساحة تضيق كلما اقتربت من الذات، ولعل هذا الضيق يتمثل في حلقات كانت تجعل المكان ينحسر مقيداً حرية الشخصية، فثمة تسقيف الشوارع، وبذلات الوقاية، وهو ما يضاعف ضدية المكان، إذ سيفضي إلى غياب أشعة الشمس عن المكان، وما في هذا من دلالة على طبيعة المكان غير المشمس.

وإذا كان من المألوف القول بان المكان يكتسب قيمته من خلال الحدث والشخصية ذلك أن تلك الشخصية وهي تنظم سيرورة الأحداث في مكانها فإنما تنظم صورة المكان ووجهة النظر التي يرصد ذلك المكان على أساسها فان من المألوف الذهاب إلى أن الذات الفاعلة في المكان هي التي تحول ذلك المكان إلى مكان مضاد، من هنا غدت شخصيات مثل حسب الدين، وسمو الدين، وغيرها، شخصيات تحول ذلك المكان من سياق الألفة المعهودة إلى سياق الضدية.

أي أن الروائي طه حامد الشبيب بنى الضدية أو الألفة على أساس موقف الذات في المكان، مما يجعل المكان تمظهراً من تمظهرات الشخصية، كما أن المكان يتحول إلى صورة للسلوك الشخصي، ذلك أن الموقف من المكان، ألفة أو ضدية، ينبع من الموقف من صاحبه.

المبحث الثاني : المكان وتكوين عالم النص ((ثنائية القروي والمدني))

اولاً: المكان القروي:

احتلت القرية مكانة مهمة في النص السردي العربي، وقبل ذلك في **الثقافة** العربية التي ما فتئت ترى في القرية منبعاً قيمياً يناقض ما تبدو عليه المدينة من تباعد في الأواصر التي تشد بنيتها الاجتماعية، مما يفضي إلى غياب القيمية، بمفهومها المتحقق في القرية.

إن لعالم القرية مكوناته التي تميزه من سواه من أماكن التجمع الإنساني، وهذه المكونات الجغرافية والاجتماعية والثقافية تشير إلى أن وضوح المرتكزات التي تكون شخصية القرية، مكاناً وإنساناً، سيجعل عالمها مناط اهتمام الخطاب الأدبي الذي سيكون نسقاً خاصاً يمكن أن يدعى ((الأدب ذو التوجهات القروية)) يقف بالمقابل من الأدب المديني.

جغرافياً يمكن الإيماء إلى أن القرية تقف على خلاف المدينة في انفتاحها التكويني، فإذ تبدو القرية ذات فضاءات سكانية متباعدة فسيحة، فان المدينة على خلاف ذلك لا تتوافر على هذا الانفتاح التكويني، فالازدحام والتشابك اظهر ملامح التكوين العمراني للمدينة. بيد أن هذا التوصيف سينقلب إلى ضده لدى الحديث عن التكوين الاجتماعي للقرية، إذ تمتاز بانغلاق وحداتها الاجتماعية، إذ هي عبارة

عن مجموعة قومية أو قبلية، بينما ينفتح التكوين الاجتماعي للمدينة ليبدو تكوينا غير قومي أو قبلي، إنما هو تكوين ينفتح على عناصر اجتماعية شتى.

ولعل فكرة انفتاح التكوين الاجتماعي للمدينة على عناصر اجتماعية متعددة سوف يفضي إلى الذهاب إلى أن ثقافة هذه المدينة ستكون اكثر تعقيداً وتشعباً، وميلاً إلى التحول، لأنها تتجاوب وتعقيدات البنى الاجتماعية المدينية، التي تتوافر كل بنية منها على مرتكزات ثقافية أما البنية الثقافية القروية فواحدية الخط، لأنها تنطلق من تمركز اجتماعي ذي اصل موحد، كما تبدو هذه الثقافة وفية لمحيطها الذي يمتاز بثباته، اجتماعياً وقيمياً لذا كانت ((ثقافة القرية المبكرة قائمة في الخرافات والتقاليد المستمرة، والتي ما زالت حية في المناطق الريفية لغاية يومنا هذا))[٣٧].

وإذا ما تجاوزنا صورة القرية الثابتة في الواقع إلى صورتها في النص السردي، فان أول ما تطالعنا صورة عالم القرية، وهو عالم طبيعي يتوافر على بهاء كبير[٣٨] استناداً إلى أن الرواية ذات التوجهات القروية تؤسس على النهوض بالطبيعة، والانحياز التام عن كل ما من شأنه أن يخرج بهذه الطبيعة من صورتها البكر، إلى صورة تقربها من المدينة.

ويكشف الاستقراء النقدي لروايات طه حامد الشبيب عن عنايته بالقرية، بيد انها عناية ذات نطاق محدود، ولم ترق إلى عنايته بالمدينة، فقد الغي حضور القرية في رواية الضفيرة، بينما توافرت على الماح وجيز إلى طبيعتها الاجتماعية والجغرافية في روايتي انه الجراد ومأتم، أما رواية الأبجدية الأولى فد كانت رواية تمحضت للقروية.

ويمكن وضع اليد على نسقين أسست عليهما وجهة النظر التي رصدت القرية على أساسهما في رواية انه الجراد: أحدهما، الرؤية الرومانسية التي تنظر إلى المدينة بوصفها مكاناً للاساءة، وتلجأ إلى القرية بوصفها مكاناً للحل، وهذه الرؤية تحاول أن تستبدل العلاقة السلبية بين الذات والمدينة بعلاقة إيجابية بن تلك الذات والقرية التي تكتنز عذرية الطبيعة الأولى التي لم تنتهكها تعقيدات الحياة المدنية، ولعل هذا الانغماس في كل ما هو غير مديني، والتصالح المطلق مع الطبيعة التي تمثل القرية اظهر تجلياتها، ورومانسية الاستبصار الذي ينتجه هذا النمط من رؤية المكان القروي، هو ما أفضى إلى ما دعاه أحد الدارسين: ((أسطورة الفردوس الريفي))[٣٩].

من هنا غدت رحلة سالم بطل رواية انه الجراد إلى القرية مثالاً لرومانسية الارتحال، وهو ارتحال كان في اول أمره قسرياً، بيد انه سرعان ما تحول إلى رحلة للانفصال عن المدينة والالتحاق بعالم القرية، حيث سيتحول ذلك المكان إلى مثال للألفة الاجتماعية والمكانية. وبهذا قدم الروائي طه حامد الشبيب القرية على إنها العالم البديل لمكان أفسدته تداخلات اجتماعية واخلاقية لم يعد باستطاعة البطل التفاعل معها.[٤٠]

إن القرية في تلك الرحلة ليست مجرد ظاهرة مكانية تؤطر الشخصية والحدث، إنما هي جزء مؤثر من حركة التأثر والتأثير بين الذات والمرتكزات التي تؤسس النص السردي، فالمكان القروي سوف يوجه الرؤية إلى تحملها الذات للعالم، كما سيوجه فاعلية عناصر التكوين الجمالي للنص، ولا سيما الزمن، إذ ستظهر للزمن الرومانسي القروي مواصفات تجعله مختلفاً عن أي نسق زمني اخر.

الزمن في القرية قوامه الثبات، لأنه يؤسس على رومانسية الاستبصار للواقع، من هنا ذهبت إحدى الدراسات النقدية إلى أن ((الزمن في الرواية الإقليمية موسيقي موزون))[٤١]، بمعنى انه زمن يتوافر على ما تتوافر عليه الموسيقى من حلميتها أو رومانسيتها، وانضباط إيقاعها، واتساق حركتها.

وإذا كانت رواية انه الجراد قد قدمت رومانسية النظر إلى القرية، فان من البديهي الإشارة إلى أن شطراً عظيماً من الرومانسية يحفز قيم الثبات اكثر مما يجنح نحو التحول المستمر، لذا كانت علاقة سالم بتلك القرية تقوم على

صناعة تثبيتات مكانية وقيمية مثلت علاقة انموذجية بين الذات والمكان، ولعل فكرة التثبيتات، هذه، تقود إلى سمة اخرى وهي ماضوية كل ما هو قروي، ولا سيما الزمن القروي الذي يبدو ماضوياً

لسببين: أحدهما الطابع الماضوي الظاهر في حياة القرية، ابتداءً من تاريخية الاسر والأراضي والعلاقات الاجتماعية، وانتهاءً عند اخر مفصل من مفاصل الحياة في ذلك المكان، واخرهما، الطابع القيمي الذي يلف عالم القرية، والذي لا شك انه طابع ماضوي، لأن المقولات القيمية لا تتحول إلى جزء من الأنساق الاجتماعية إلا اعتماداً على رصيد زمني كاف. وحيث أن حركية الزمن دأبها التطور فان من الطبيعي أن لا تكون القيم قيما إلا بعد أن تتوافر على امتداد زمني ماضوي.

أن رؤية سالم للقرية -وان كانت رؤية مدنية ترصد المكان من خارجه، إذ أن سالماً كان مدنياً- إلا أن امتزاج البطل بعالم ذلك المكان جعل رؤيته لذلك المكان رؤية داخلية تتعاطف مع ذلك المكان، وتحكم الذات في تقويمه، ولعل هذا ما يفسر استبعاد سالم بعض تفاصيل سلبية عن عالم القرية والإبقاء على كل ما هو إيجابي.

ولئن آثرت رواية انه الجراد رصد المكان القروي من الداخل، لقد دأبت رواية مأتم على رصد المكان من الخارج فكانت الرؤية المدينية للقرية ترصد تلك القرية انطلاقاً من رؤىً ومعايير تختلف عن رؤية القرية، وهذه الرؤية على خلاف ما سلفت الإشارة إليه في رواية انه الجراد، لأنها ترى في القرية مكاناً للاساءة بينما ترى في المدينة مكاناً للحل.

أن رواية مأتم تعتمد في تقديم الصراع الوجيز بين القرية والمدينة على غزو قروي للمدينة، حصل بوصفه رد فعل على إساءة قادمة من المدينة،[٤٢] وهو رد فعل سينتهي إلى ((أن المزارعين بعد أن احرقوا الآبار تفرقوا زرافات في البلدة وجعلوا ينتزعون الدلاء من اكف الناس التي كانت تحملها إلى مزارع الرز، ويسفحون ما فيها على الطرقات ويحرقونه حيث ينسفح.. إذ لم ينج في ذلك اليوم من حرائق المزارعين حتى الشوارع الضيقة غير المبلطة التي تتوسط الأزقة)).

أن الرؤية القروية في رواية مأتم تجاوزت فكرة ((الطبيعة الرعوية والشر المدني أو الحضري))[٤٣] لتستبدلها بفكرة ترى أن الطيبة أو الشر نمطان سلوكيان قد يتأثران بالبيئة التي يوجدان فيها، لكنهما لا ينتميان إليها بصورة مطلقة، أي أن أياً من هذين السلوكين –الخير والشر- لم يعدا يكونان سمة توسم باحدهما بيئة ما، بينما توسم باخرهما بيئة مغايرة إنما صارا سمتين يوصف بأحدهما الأشخاص الذين ينتمون إلى هذه البيئة أو تلك، وهما – قطعاً، يتجاوران في بيئة واحدة، كما يمكن أن يتجاورا في شخصية واحدة.

وبهذا لا تؤمن الرؤية الخارجية للقرية بان شخصاً ما يمكن أن يتمحض للخير أو للشر على أساس بيئي، وإنما ترى أن هذه الأوصاف لا يختص بها زمان أو مكان أو شخصية، بل تدخل النسبية معياراً أساسياً في فهم هذه المسألة.

وتقدم رواية الأبجدية الأولى أنموذجين قرويين: أحدهما القرية المؤتلفة، واخرهما القرية المختلفة، وقد اصطفت للأنموذج الأول طائفة من المواصفات اشهرها اثنين: أحدهما البعد الديني لهذه القرية، إذ هي قرية تعظم الإله الون ومن ثم فهي قرية ذات أرضية دينية تكفي لجعلها قرية مستقرة وثانيهما البعد الاجتماعي الذي يتخذ دعامتين: إحداهما حضور التاريخ الاجتماعي في تنظيم البيئة الاجتماعية في هذه الرواية على نحو ما يلحظ في مكانة اسر القتلى الستة الذين قتلوا دفاعاً عن القرية في غزوة قديمة، واخراهما، الانسجام الأسري الذي يقدم في هذه الرواية بوصفه دلالة على تماسك البنية الاجتماعية، ومن ثم دلالة على ائتلاف هذه القرية.

أما القرية المختلفة التي ستصبح مثالاً للمكان المضاد، فلها –ايضاً- جملة من المواصفات لعل من اشهرها اثنين: إحداهما، غياب البعد الديني الراسخ في هذه القرية، على خلاف ما بدت عليه القرية المؤتلفة، التي هي قرية الإله الون، ذلك أن قرية الإله ايلا كانت بعيدة عن اشتراطات التقديس التي تنظم الحياة الروحية لمجتمعها، وهذا ما تجلى في المحاورة بين رجل أخذت نشوة السراخس عليه عقله وكاهن الإله ايلا، وهي محاورة تدور حول جدوى أن يدين الإنسان لتلك الآلهة بشيء، وكيف يستخف الرجل الذي يحاور الكاهن باشتراطات التدين التي تضعها المعابد وكهنتها[٤٤].

بل أن غياب البعد الديني في هذه القرية سوف يتحول إلى سمة عامة لهذه القرية، حتى وان ارتاد أفرادها المعبد، فهو ارتياد لا يتمحض للارتياد العبادي، إنما هو كما جاء في انتقاد ما وجه لأبناء هذه القرية: ((هكذا انتم.. حتى قبل أن يقدم جرن الكلب هذا ... كنتم إذا قصدتم المعبد فليس لتعظيم ايلا وإنما طمعاً بلحوم القرابين))[٤٥].

أما ثانية الصفتين اللتين كونتا مواصفات القرية غير المؤتلفة في رواية الأبجدية الأولى فتتمثل في غياب التماسك الاجتماعي، على خلاف ما بدت عليه القرية المؤتلفة، ولعل هذا التفكك الاجتماعي هو ما يجعل هذه القرية مؤهلة للاختراق من الخارج. هذا التفكك الذي بدا باجلى حالاته في وصف حالة (رلاسيم) الذي كان سريع الانضمام إلى من انتهك قيم قريته، فقد كان (رلاسيم) في الخمسين من عمره، اشتهر أبوه من بين سكان القرية برحلاته إلى القرى المجاورة والقصية أيضاً فلقد عبر اللبشارا وخبر جميع اتجاهاته، ولم يتوقف عند حدوده، بل تعايش ردحاً غير قليل من عمره مع بشر وحيوان الصحراء [كذا]. وفي إحدى رحلاته إلى قرى الأصقاع الجبلية التي استغرقته عدداً من استدارات القمر اغفل إحصاءه، عاد ووجد زوجته قد ولدت رلاسيم، حينئذ لم يكن بوسعه أن يميز سلامة هاجس مزق سكناته، فاهمله وافتتح أول سقيفة لمبادلة البضائع في منثاما وصار منذئذ أثرى من فيها، وحينما بلغ رلاسيم اشده دخل على أبيه عند غروب شمس أحد الأيام حاملاً حجرا مرهف السن وأرغمه على ازدراد ما في صندوق مبيعاته لذلك اليوم من قطع معدنية عند ذاك وقبل أن يشهق شهقته الأخيرة قطع بيقين راسخ انه قد ترك زوجته حائضاً حينما غادرها إلى القرى الجبلية. في اليوم التالي دفن سكان القرية معه أباه وقبلوا رأسه ولم يتخلف عن ذلك أحد غير الكهل الذي لم يكن عمره قد بلغ القرن بعد ، يومئذ كان يجلس في ذات الركن الذي يجلس فيه الان ، يرقبه وهو في أحضان جرن، حين دخل رلاسيم بالحجر المسنون على أبيه كانت أحجار الكهل ما تزال متقدة ودخان بخوره ما فتئ يعفر السوق التي خلت وقتئذ من المتبضعين وأصحاب السقائف))[٤٦]

إذ يقدم هذا المقتبس أنموذج غياب الائتلاف في القرية، حيث غياب الركيزتين المهمتين في غياب الانسجام الاجتماعي، كما يتجلى في حالة رلاسيم الذي هو ابن غير شرعي، وغياب ألحس الديني لديه، لا سيما وانه ينظر إلى الفاعلية الدينية بمنظار قوامه الاستخفاف، ولعل هذا ما يفسر موقف رلاسيم من كاهن معبد قريته وهو يمر بذلك المكان، اذ ((ظنه شيخاً خرفاً يتوارى خلف أبخرته فتجاوز مجلسه))[٤٧].

أن ثمة استفهاماً يثار عن السبب الذي جعل رواية انه الجراد تقدم محيطين مكانين مختلفين، هما: المحيط القروي بوصفه انموذجاً للخير، والمحيط المدني بوصفه اقل توافراً على الخير من المحيط القروي، بينما قدمت رواية الأبجدية الأولى محيطاً مكانياً واحداً هو القرية، بوصفه مثالاً للخير ممثلاً في قرية الإله ألون، مثالاً لتراجع احتمالات الخير، كما في قرية مناثاما.

والإجابة عن استفهام كهذا ترجع إلى أن رواية انه الجراد رواية ذات توجهات واقعية ترصد الواقع كما هو متحقق، مؤثرة التعامل كما هو في تنوعه، وفي الرؤى السائدة فيه، وهي رؤى يغلب عليها إيثار ما هو قروي على المدني من الناحية القيمية أما رواية الأبجدية الأولى فتستدعي حياة الإنسان في أنماطها الأول، ومن ثم وجب أن تكون بيئتها هي بيئة الإنسان الأول وهي القرية، بوصفها النمط الأقدم من أنماط الاستيطان الإنساني.

ولم تقدم رواية الضفيرة مكاناً قروياً، وهذا راجع إلى أسباب عديدة منها: أن هذه الرواية رواية مدينية احتفظت بحياة المدينة، مؤثرة التعامل معها اكثر من إيثارها التعامل مع القرية. كما أن طبيعة عالم راوية الضفيرة لا تبدو مؤهلة لان تكون رواية قروية إذ أن عالم القرية –بما هو فضاء مترامي الأطراف- لا ينسجم وعالم رواية الضفيرة، الذي قدمه الروائي الشبيب بوصفه عالماً قائماً على تسقيف الشوارع[٤٨]، وهي في نهاية المطاف فضاءات مغلقة يسهل اقناع المتلقي بان تحجيم مساحتها، والحد من انفتاحها أمر يبدو ممكناً، أما القرية التي تنفتح فيها الأرض على السماء فيبدو فيها أمر كهذا بوصفه أمراً متعذر التحقيق.

أن تتبع روايات الشبيب يفصح عن أن عالم القرية قدم بوصفه رافداً للعالم الرئيس الذي هو عالم المدينة، ففي رواية انه الجراد كانت القرية مكاناً بديلاً مؤقتاً امتاز بمحدودية مساحته، وضيق البنى الاجتماعية المكونة له أما رواية مأتم فكانت القرية فيها لازمة من لوازم إعلاء شأن المدينة، ومن ثم لم يكن المكان القروي مكاناً مسروداً لذاته، وإنما جاء ليرفد وجود المكان المديني، الذي هو المكان الأصل، وهذا يعني ترجح المكان المدني على المكان القروي في اغلب روايات الشبيب ترجحاً مادياً، أما معنوياً فقد ظلت الرؤية القروية في اغلب امثلتها رؤية قيمية، ومن ثم ظلت الشخصية في تلك القرية متوافرة على حضور قيمي اكثر من سواها.

أما السمة الثانية للمكان القروي في روايات الشبيب فتتمثل في شحوب وصف ذلك المكان، وهي –كما أشير إليه سابقاً- سمة تكون ملمحاً من ملامح العناية بالمكان في روايات الشبيب الذي كان لا يضيء المكان إلا حيث تتحرك داخله شخصيات مضاءة، مما يذكر بما صنعته بعض اتجاهات السردية القديمة حينما ((أعطت المكان المحل الثاني من اهتمامها))[٤٩] مؤثرة عليه الشخصية التي تؤثر في ذلك المكان.

ثانياً: المكان المدني:

وقد مثلت المدينة مرتكزاً مهماً في النص السردي وهذا يرجع إلى أن المدينة كيان اجتماعي وجغرافي وثقافي يكتنز تعقيدات تتجلى اكثر مما تزهر في أي مكان اخر، وهذا ما حمل أحد الدارسين على الذهاب إلى أن الرواية ((كائن مديني))[٥٠] مستنداً في مذهبه هذا إلى إيثار الخطاب الروائي التعامل مع المتشعب والمتداخل والمعقد بوصفها موضوعات أولى بالنقل الغني من غيرها من الموضوعات.

وإذا كانت الرواية كياناً واسعاً ومتشعباً، فان من الطبيعي أن تأتي الرواية التي تعنى بهذه المدينة رواية واسعة ومتشعبة، وهذا ما جعل أنماط التعامل مع هذه المدينة مختلفة متنوعة، فقد يوظف الروائي المدينة ((بصفتها خلفية في أعماله))[٥١]، أي أن المدينة –هنا- ستصبح ذخيرة مرجعية توجه رؤى الفاعلين، والأنماط السلوكية لهم، والعلاقات الاجتماعية، والأساليب المعيشية التي تكون عالمهم المدني.

وقد توظف المدينة بوصفها موضوعاً للخطاب، ويبدو أن هذا النمط من اكثر أنماط توظيف المدينة في النص السردي، ذلك أن هذا النمط يتخذ صوراً عديدة، ولا سيما حينما يتواشج ووجهة النظر التي ترصد الظاهر المدنية على أساسها، فقد تكون الرؤية غير المدنية هي الأساس في تشكيل ملامح المدينة في الرواية، ولعل الرؤية الريفية هي ابرز أنواع الرؤى غير المدنية في التعامل مع المدني، وهذه الرؤية تتبع في الأعم الأغلب مسارين: أحدهما الرؤية الهجائية للمدينة، لا سيما حينما تكون ثمة مقارنة بين القرية بما تحمله من وضوح العلاقات الانسانية، ومحدودية الفضاء الجغرافي، والالتحام الاسري، والمدينة بوصفها مناقضة تماماً لما تحمله القرية، واخراهما، الرؤية المنبهرة التي تنظر إلى المدينة بوصفها عالماً فسيحاً يقف على النقيض مما يمثله عالم القرية.

أن هذين النسقين من الرؤية ذات الطابع القروي لا تشتركان في مرجعيتهما المكانية، فحسب، إنما تشتركان في غياب النظر إلى المدينة بوصفها مدينة فاضلة، وحلول النظر إلى القرية الفاضلة بوصفها بديلة من تلك المدينة. من هنا لا يستغرب وجود من يرى في المدينة ((فضاء الاحباطات والانكسارات، ومدار تجربة يطبعها التأزم والضياع))[٥٢].

وهذه الرؤية للمدينة يمكن أن يصطلح عليها الرؤية من الخارج، أي الرؤية التي ترصد موضوعها انطلاقاً من مرجعياتها المختلفة عن ذلك الموضوع. كما يمكن أن يلحظ أن هذه الرؤية رؤية رومانسية، تتشح بالقيمية والتعلق بالطبيعة، والمثالية في النظر للأشياء.

وهذا النمط من الرؤية لم تعن به روايات طه حامد الشبيب، ذلك أنها روايات مدنية التوجه، على نحو ما سلفت الإشارة اليه، كما أن الرواية التي عنيت بما هو قروي لم تكن تقف في مواجهة عالم مديني، انما كانت رواية واحدية الفضاء، فهي تتحرك ضمن إطار قروي، ولعلها عوضت عن هذا

التقابل بين عالمي القرية والمدينة بتقابل اخر على مستوى الرصيد المعنوي والقيمي لقريتين، وبهذا فهي لم تعتمد التقابل المكاني أساساً في بنائها، إنما اعتمدت التقابل الاجتماعي.

وإذا كانت القرية قد رصدت في روايات الشبيب من منطلق الرؤية من الخارج فان المدينة لم ترصد إلا انطلاقاً من الرؤية من الداخل، فكانت الرؤية المدينية متجاوبة مع كل ما في ذلك المكان من قيم وأخلاقيات ومكونات اجتماعية وأنماط سلوكية تتناسب وطبيعة المكان.

غالباً ما تنتج الرؤية المدينية للمدينة خطاباً واقعياً، وهذه الواقعية راجعة إلى ما ذهب إليه أحد الدارسين –وهو يستقرئ مواقف روايات كثيرة من المدينة- إلى أن ثمة كراهية واضحة من الرواية للمدينة، وان المدينة كانت عدوة للرواية.(٥٣)

لقد تحكمت في صورة المكان المدني في رواية انه الجراد موجهات عديدة لعل من أظهرها ضيق المساحة المكانية، فبرغم أن المدينة تمثل مساحة مكانية واسعة إلا أن الأماكن التي كان يضيؤها الراوي في تلك الرواية كانت أماكن لا تتوافر على ما توافرت عليه المدينة من انديا ح وشمول، إنما جاء المكان موصوفاً بأنه زقاق أو بيت، وظل الراوي يعنى بعلاقة هذين المكانين في تكوين بطل هذه الرواية (سالم)، كما ظل هذان المكانان، وهما يمتازان بضيقهما، ينفتحان على الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها البنية الاجتماعية المحيطة ببطل الرواية، وفي مقابل هذا الانحسار في مساحة المكان الشعبي كانت الرواية تقدم مكاناً اخر يناقض المكان الأول تماماً، وهو مكان مختص بالاثرياء، وهذا المكان يأتي على مستويين: أحدهما مكان السكن، وهو مكان فاره، يمتاز بالاتساع والارتفاع، وتداخل المبني بالمستنبت، وهذا المكان لم ترد اليه الإشارة سوى مرة واحدة، أوردته الرواية بوصفه مكانا ضديا للاساءة للبطل، مما يعني أن رواية انه الجراد لم تكن رواية معنية بوضع اليد على الصراع الطبقي لكي تنصرف إلى الإشارة إلى لوازم صراع كهذا، إنما كانت معنية بوضع اليد على الصراع القيمي، لذا كان المكان المدني –هاهنا- يضاء بمقدار دلالته على قيمة ما، أو بمقدار ارتباطه بصيغة ما تضيء نمطاً قيمياً من الأنماط التي عالجتها الرواية.

أما المستوى الثاني من المكان غير الشعبي الذي عالجته هذه الرواية، فكان مكان العمل، وقد اضاءت مكانين ضمن هذا المستوى: احدهما، المكان داخل المدينة، وهو مكان يمتاز بازدواجية وظيفته، إذ هو ظاهراً مكان للعمل أو هو محل تجاري، أما في الخفاء فكان مكاناً لممارسة الممنوع الاجتماعي، وهذا النمط على خلاف النمط الثاني الذي هو المكان خارج المدينة، الذي يمتاز بأحادية وظيفته، فهو مكان يمارس فيه الممنوع الاجتماعي، على نحو ما نجد في أماكن اللهو التي رصدتها الرواية على إنها أماكن تقع على تخوم المدينة.

أن ارتباط المكان الأول بالمجتمع المدني باتساع شرائحه، وارتباط المكان الثاني بشريحة اجتماعية معينة، جعل لكل من المكانين إطاره الزمني الخاص به فكانت زمنية المكان الأول ترتبط بحركة الناس، أو في النهار، أما زمنية المكان الثاني فكانت سرية تتحاشى حركة الناس، ومن ثم فهي ليلية.

كما امتاز المكان المدني في رواية انه الجراد بشيوع الطابع الضدي وهو طابع يرجع إلى علتين: احداهما، الانهيار الاخلاقي، فقد ظلت هذه الرواية ترصد مظاهر الاختلال في كثير من أماكنها، من خلال تفجير الصورة المألوفة، فكانت الإساءة تجد سبيلها إلى اكثر الأماكن احتمالية لتوافر المقومات القيمية فيها، فقد عرضت هذه الرواية بيت سالم ومدرسته بوصفها مثالين لتحول صورة المكان من الحالة المثلى إلى خلافها، إذ كانت اخته نجاة تمارس سلوكاً منحرفاً في هذين المكانين، مما جعل رؤية سالم تتحول بهما من صورتهما الأولى إلى صورة اخرى مناقضة تماماً.

كما طبع ذلك المكان بالضدية بسبب من عدم الانسجام مع المكان على نحو ما صورته الرواية في مصحة الأمراض العقلية، التي صورت الانفصام القسري عن المجتمع، ودوره في صناعة وعي مختل لدى الذات التي تمارس ضدها ذلك الاقتسار.

أن رواية انه الجراد مثلت اثر المرجعيات الاجتماعية المتناقضة في تكوين عالم المدينة، الذي بدا عالماً محكوما بقوى الانحراف، بيد أن انحرافاً كهذا لم يكن انحرافاً نهائياً أو قدرياً، إنما كانت خاتمة الرواية إيذاناً بحلول فلسفة جديدة في المكان. هذه الفلسفة التي كشفت عن قدرة المجتمع المدني المحكوم بحركة التحول على إنجاز صيغ اجتماعية تجعل المكان اكثر حميمية، كما تجعل تصور الروائي لمدنه أدنى إلى التفاؤل واستشراف آت مختلف منه إلى الهجاء والنكوص من الحلم بواقع اخر.

وتقدم رواية مأتم بناءً مكانياً مدنياً، بيد أن هذه الرواية لا تحتفل بوصف تلك المدينة، ولابتسميتها، وهي سمة تكاد تغلب على المنجز السردي للشبيب، فهو يمتاز بالاقتضاب في رصد تفاصيل تكوين المكان، لكنه يضيء ذلك المكان من جهتي الحدث الذي وقع فيه، والشخصيات الفاعلة في ذلك الحدث.

وكما هو دأب الشبيب غلبت الصفة الضدية على المكان المدني، وأقول: غلبت، احترازاً من فهم قد يذهب إلى ضدية المدينة بتمامها، ذلك أن الروائي لا يتحدث عن المدينة بصورتها الكاملة، إنما يتخذ من جزء من أجزاء المدينة انموذجاً دالاً على تلك المدينة، أو أن سيطرة ذلك الجزء سوف تفضي إلى بسط صورته على أجزاء المدينة الاخرى.

ولعل أولى السمات التي تسجل عند الحديث عن البنية المكانية المدنية في رواية مأتم تكمن في هذا الغياب الجلي للبعد الإنساني في هذه المدينة، حتى أن موت الإنسان يتحول فيها إلى تسلية، على نحو ما ورد في واحد من ملفات تلك المدينة: ((كان الموت بحقهم قليلاً، فلا اقل من أن يتسلى برميهم مجانين البلدة- اذن فهي التسلية كما حدس زاهد وفطن له))[٥٤].

فلقد كانت الحياة في هذه المدينة قائمة على صناعة الموت في قصر مالك البلدة، وتصديره إلى البلدان المجاورة، إذ بدت هذه المدينة مدينة موبوءة بالموت في تفاصيل حياتها كلها.

أما ثانية السمات التي امتازت بها تلك البلدة فتكمن في غياب التماسك في البنية الاجتماعية لتلك المدينة، إذ وصف مجتمع تلك المدينة بانانيته وإيثاره ذاته، وعدم الاكتراث بالاخر حتى لو كان ذلك الاخر هو الابن، ذلك انهه ((كان الواحد منا يتمنى أن يثكل إنما لا يؤبن، اجل، ذلك ما يمكن أن يدنو من الحقيقة حد الالتصاق، فمن يثكل تغمره نعم المالك، لكن من يؤبن لن يجلله غير التراب))[٥٥].

وثمة سمة اخرى كونت ملامح المدينة في رواية مأتم تتمثل في هذه السلطوية التي طبعت صورة تلك المدية، وهي سلطوية افضت إلى وجود ظاهرة الاستلاب، كما اسلفت الإشارة إلى ذلك في مبحث الألفة والضدية في المكان، وهذه ملاحظة لا تصدق على مدينة – بعينها في روايات الشبيب، إنما يمكن الذهاب إلى أن جل المدن التي وردت في رواياته تكتنز ثنائية السلطوية والاستلاب.

وإذا كانت رواية انه الجراد قد قدمت بناءً مكانياً يتوافر على شيء من الوضوح أو التحديد المكاني ممثلاً بالزقاق والبيت والحي الغني أو الفقير، فان رواية مأتم لم تقدم مثل هذا الوصف، إنما غابت الملامح التي تميز مدينة هذه الرواية من سواها من مدن اخرى وردت في روايات الشبيب، ولعل سر غياب ملامح مدينة مميزة في مأتم يرجع إلى أن هذه الرواية ظلت تعنى بقصر المالك عناية كبيرة، معرضة عن إضاءة أماكن اخرى في المدينة، أما الأماكن الاخرى التي عنيت بها هذه الرواية فكانت أماكن رافدة، أما تساعد في تكوين صورة المكان الرئيس، إذ أن المكان الذي يسكنه المالك تكتمل صورته حيث يقع فعل ذلك المكان، أي حيث تمتد حملاته لإعلاء صيت البلدة ومن ثم فهو مكان لم يذكر لذاته فحسب، إنما ذكر لغيره ايضاً، واما لإضاءة مكان الراوي، فالمنزل والمستشفى لم تذكر إلا لكسر رتابة السرد الذي تدور مادته الحكائية الأولى داخل قصر المالك، أو أن تلك الأماكن ذكرت للوصول إلى بيان المرجعية المكانية للراوي، والاشارة إلى وقوعه اسير نمطين من المكان، مكان الذات ومكان الاخر، ومن ثم ظهوره بسلوكين مختلفين، وشخصيتين مختلفتين مأزومتين.

وإذا كانت رواية الأبجدية الأولى قد تمحضت للقروية فان رواية الضفيرة تقف على خلافها تماماً، ذلك أن هذه الرواية تنتمي في متنها الحكائي إلى زمن موغل في المستقبلية، ومن ثم يقع في زمن

افول الاستيطان القروي الذي بينته رواية الأبجدية الأولى الموغلة في القدم، كما أن طبيعة بناء هذه الرواية، الذي هو بناء قوامه ضيق المكان الناجم عن فكرة تسقيف المدينة[٥٦]، لا يبدو مؤهلاً لمناسبة المكان القروي ذي الانفتاح المكاني. ومن ثم جاءت الرواية بعيدة عن كل ما من شأنه ان يمت بصلة إلى المكان القروي.

الهوامش:

(١) حوار مخطوط مع الشبيب
(٢) انه الجراد: ٥٠
(٣) م.ن: ١٤٨.
(٤) م.ن: ٣٥
(٥) م.ن: ٦٢
(٦) ظ: م.ن: ١٧-١٨
(٧) م.ن: ٢٣
(٨) م.ن: ٨٣
(٩) الأبجدية الأولى: ١٧.
(١٠) م. ن: ٨
(١١) م. ن: ٦-٧
(١٢) مأتم: ٣٣.
(١٣) العمى والبصيرة: ٩٩.
(١٤) انه الجراد: ٩.
(١٥) م.ن: ٧٦.
(١٦) م.ن:٧٧.
(١٧) م.ن:٦٧.
(١٨) م.ن:٢٣.
(١٩) م.ن: ٢٦.
(٢٠) م.ن: ١٨.
(٢١) م.ن: ١٤٨.
(٢٢) م.ن: ٤٧.
(٢٣) الأبجدية الأولى:١٢.
(٢٤) ظ:م.ن: ١٦-١٧.
(٢٥) ظ: م.ن: ٩٤.
(٢٦) م.ن: ٢٧-٢٨.
(٢٧) م.ن: ٩٣-٩٤.
(٢٨) ظ: م.ن: ١٠١.
(٢٩) م.ن:١٠٤.
(٣٠) م.ن: ١٠٥.
(٣١) مأتم: ٩٤.
(٣٢) ظ:م.م: ٦٦-٦٧.
(٣٣) ظ: م.ن: ١٣٦.
(٣٤) م.ن: ١٠٦.
(٣٥) انه الجراد: ١٠٨.
(٣٦) الضفيرة: ١٩.
(٣٧) م.ن: ١٠.
(٣٨) الرواية والمدينة: ١١٨.
(٣٩) ظ: م.ن: ١٢٨.
(٤٠) م.ن: ١٢٠.
(٤١) ظ: انه الجراد:
(٤٢) الرواية والمدينة: ١٢٨.

(٤٣) مأتم: ٩٣.
(٤٤) م.ن: ٩٤.
(٤٥) الأبجدية الأولى: ٤٠-٤١.
(٤٦) م.ن: ٢٢.
(٤٧) م.ن: ٣٨-٣٩.
(٤٨) م.ن: والصفحة.
(٤٩) ظ: الضفيرة: ٥.
(٥٠) فضاء النص الروائي: ١١٥.
(٥١) الراوية والمدينة: ١٠٤.
(٥٢) م.ن: ١٠٥.
(٥٣) المكان ودلالاته في الرواية النسوية المغاربية:٢٩.
(٥٤) الرواية والمدينة: ١١١-١١٢.
(٥٥) مأتم: ٢١.
(٥٦) م.ن: ٢٦.
(٥٧) الضفيرة: ١٩.

المصادر والمراجع:

-الابجدية الاولى: طه حامد الشبيب، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد ، ط١، ١٩٩٦.
-الامساك بقطرة الزئبق، حوار مخطوط مع الدكتور طه حامد الشبيب اجراه خضير ميري ، تقديم سليم دوله.
-انه الجراد: طه حامد الشبيب، مطبعة المعارف-بغداد ، ط١، ١٩٩٥.
-التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف: عبد الحميد المحادين، البحرين الثقافية –البحرين، ع١٨، ١٩٩٨.
-الرواية والمدينة : جورج هنري رالي، ضمن كتاب نظرية الرواية، علاقة التعبير بالواقع، مجموعة كتاب، ترجمة: د. محسن جاسم الموسوي، منشورات مكتبة التحرير- بغداد، د. ط، ١٩٨٦.
-الضفيرة : طه حامد الشبيب، منشورات المنصور- بغداد، ط١، ١٩٩٩.
-العمى والبصيره مقالات في بلاغة النقد المعاصر: بول دي مان، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات المجمع الثقافي- الامارات، ط١، ١٩٩٥.
-فضاء النص الروائي: مقاربة بنيوية تكوينية في ادب نبيل سليمان: محمد عزام، دار الحوار-سوريا، ط١، ١٩٩٦.
-مأتم: طه حامد الشبيب، دار القبس، بغداد، ط١، ١٩٩٨.
-المكان ودلالاته في الرواية النسوية المغاربية: ريم العيساوي، مجلة الرافد- الامارات، ع٥٨، يونيو، ٢٠٠٢.

Abstract

Place is one of the narrative components, thus, investigating its role represents a response to the ambition of deconstructing the means of effect in any text.

This deconstructing does not intend to separate any component from other components but to go through it self deeply on out side and its relation to other components on the other side. This shows the significance of studying place in it self and its relation to the inhibit ant and its being a component having a great relation to other components to compose the final sketch of the text.